بقلم د. غانم قدوري الحمد

أصل القراءات القرآنية

بين حقائق التاريخ ودعاوى المبطلين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن (القراءات القرآنية) علم من علوم القرآن، صرف إليها العلماء كثيراً من عنايتهم وجهدهم من لدن عصر الصحابة-رضوان الله تعالى عليهم-إلى عصرنا هذا، روايةً وتعليماً وتأليفاً، وموضوع (القراءات) شديد الصلة بنص القرآن الكريم، لأنه يُعنى بكيفية أداء كلمات ذلك النص. وقد صار كثير من مباحث هذا العلم أقرب إلى البحث التاريخي بعد أن انتشرت في معظم بلدان العالم الإسلامي قراءة واحدة من القراءات القديمة المشهورة، وهي قراءة عاصم بن أبي النُجُود الكوفي المتوفى سنة (١٢٧هـ)، وزالت القراءات الأخرى من ميادين التلاوة العامة إلى ميادين البحث والدراسة والرواية في معاهد القراءات ودور العلم.

وقد برزت دعاوى باطلة تمسُّ أصل القراءات القرآنية وطريقة روايتها ونقلها، وهي ذات أثر خطير لا سيما على المثقفين ذوي التخصصات العلمية البعيدة عن

علوم القرآن وتاريخه، وبعض تلك الدعاوى ورد في كتابات شعوبية قديمة، وبعضها سطرته أقلام استشراقية حديثة، وكلها تلتقي عند هدف واحد، هو تشويه تاريخ القرآن الكريم عن طريق التشكيك في سبل صيانته، وما يتبع ذلك من الطعن في حُفَّاظه الذين أفنوا أعمارهم في تعلم قراءة القرآن، وروايتها وتعليمها، وهم خيار هذه الأمة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

وسوف أقتصر في حديثي -هنا- على بيان حقيقة تلك الدعاوى المتصلة بأصل القراءات القرآنية، وعسى أن تسنح فرصة أخرى أتمكن فيها من تفصيل القول في طريقة نقل القراءات وروايتها، إذ أني أجد-الآن- أنَّ بحث موضوع أصل القراءات أكثر أهمية من غيره، لأن الأمر قد تفاقم في هذا الجانب، حتى صرنا نرى مطبوعات يتداولها الناس عامة وفيها من الطعن بالقرآن وتاريخه ما يأسف له كل باحث منصف.

ولقد بلغ الأمر ببعض من تصدى للبحث في تاريخ القراءات حدَّ إنكار أي صلة للقراءات بالنبي ﷺ أو صحابته، وادَّعى (أنها ترجع إلى خصوصية الخط العربي الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى، الذي كان خالياً من علامات الحركات ومن نقاط الاعجام)، أو أنها «اجتهاد من القراء أنفسهم»، وهذه الدعاوى أبعد ما تكون عن حقائق التاريخ الثابتة.

وسأتناول الموضوع من خلال أربعة مطالب:

المطلب الأول: تمهيد في التعريف بموضوع القراءات على نحو موجز.

المطلب الثاني: مناقشة القول بأن أصل القراءات راجع إلى طبيعة الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى.

المطلب الثالث: مناقشة القول بأن القراءات اجتهاد من القراء.

المطلب الرابع: خاتمة في توضيح أصول قراءتنا التي نقرأ بها الآن.

المطلب الأول: تمهيد في التعريف بموضوع القراءات على نحو موجز.

علم القراءات علمٌ يُعنى بكيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، وتحقيق الروايات المنقولة في ذلك عن أئمة القراءة، ولا شك في أن أولية هذا العلم مرتبطة بنزول القرآن على رسول الله ﷺ وبدء تبليغه وتلاوته على الناس من حوله، ثم عناية المؤمنين به ومداومتهم على تلاوته.

وكان من بين العدد الكبير من المؤمنين حُفَّاظٌ للقرآن، قد تعلموا القراءة من الرسول ﷺ وانطلق هؤلاء الحُفَّاظ بتعليم القرآن في عصر النبوة وبعده، وكان من أشهر حُفَّاظ القرآن ومعلميه من الصحابة جماعة منهم بعد الخلفاء الأربعة: معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيّ بن كعب، وعبدالله بن مسعود، وأبو الدرداء، وغيرهم.[1]

وكان في قراءة الصحابة للقرآن تباين في نطق بعض كلمات القرآن، يرجع إلى ما رخص لهم به رسول الله ﷺ وأقرَّهم عليه، في ظروف تتلخص في أن العرب كانوا قبائل متباينة في نطقها، ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمر أن يزول عن لغته لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل مُتسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات، فأمر رسوله بأن يُقرئ كل قومٍ بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم، كما يقول ابن قتيبة.[2]

وأخذ التابعون قراءة القرآن من علماء الصحابة بالقراءة، وحملوا عنهم قراءاتهم، وتكوَّنت في المراكز الإسلامية الخمسة الأولى، أعني مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والبصرة، والكوفة، ودمشق، حلقات علمية حول مَن كان فيها أو نزلها من علماء الصحابة، رضي الله عنهم، واشتهرت عشرات الأسماء من العلماء بالقراءة في عصر التابعين، في تلك

(١) ينظر: علم الدين السخاوي «جمال القراء»: (٢/ ٤٢٤).

(٢) «تأويل مشكل القرآن»، (ص٣٩).

الأمصار وما حولها، وقال أبو عبيد القاسم بن سلاَّم (ت٢٢٤هـ) في كتابه الكبير في القراءات: «ثم قام من بعدهم بالقرآن قومٌ ليست لهم أسنان من ذكرنا ولا قُدْمتهم، غير أنهم تجرَّدوا للقراءة واشتدت بها عنايتهم ولها طلبهم، حتى صاروا بذلك أئمة يأخذها الناس عنهم ويقتدون بهم فيها، وهم خمسة عشر رجلاً من هذه الأمصار المسمَّاة».[1]

ومضى المسلمون يقتدون بقراءة أولئك العلماء الذين اشتهروا بالقراءة في عهد التابعين، وتابعي التابعين، الذين ذكر أبو عبيد أنهم خمسة عشر رجلاً، وربما انضاف إليهم غيرهم، واعتنى العلماء بقراءاتهم وألَّفوا فيها الكتب، التي كان من أشهرها كتاب أبي عبيد الذي ذكرناه قبل قليل، حتى جاء ابن مجاهد (أبو بكر أحمد بن موسى ٢٤٥-٣٢٤هـ) الذي رأى أن كثرة القراءات مما يصعب على الناس عامة الإحاطة به، فدرس تلك القراءات، وميَّز بين المشهورة منها وغير المشهورة، وألَّف من أجل ذلك كتابين لهذا الغرض، كان لهما الأثر في توجيه الاهتمام والتأليف في القراءات وجهة معينة، فألَّف كتابه الكبير (السبعة في القراءات) وجعله في القراءات الصحيحة المشهورة، وألَّف كتاب (شواذ القراءات) للقراءات الأخرى التي لم تبلغ من الشهرة والصحة ما بلغته القراءات السبع.[2]

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

قال ابن مجاهد في مقدمة كتابه (السبعة في القراءات): «والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقَّوْها عن أوَّليهم تلقياً، وقام بها في كل مصر من الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين، أجمعت الخاصة والعامة على قراءته، وسلكوا فيها طريقه، وتمسكوا بمذهبه».[3] ثم ذكر القراء السبعة الذين أورد قراءاتهم في كتابه، وهم ممن ذكرهم أبو عبيد من قبل ضمن الخمسة عشر رجلاً الذين تصدروا للقراءة في الأمصار الخمسة بعد عصر التابعين، وهم، مرتبين حسب

---

(١) نقلاً عن «جمال القراء»: (٢/ ٤٢٨) لعلم الدين السخاوي، لأن الكتاب مفقود.

(٢) ينظر: ابن جني «المحتسب»: (١/ ٣٤-٣٥)، وابن النديم: «الفهرست»، (ص٣٤).

(٣) كتاب السبعة، (ص٤٩).

تاريخ وفياتهم:

(١) عبدالله بن عامر اليحصبي (ت١١٨هـ) قارئ أهل الشام.

(٢) عبدالله بن كثير (ت١٢٠هـ) قارئ أهل مكة.

(٣) عاصم بن أبي النجود (ت١٢٧هـ) قارئ أهل الكوفة.

(٤) أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) قارئ أهل البصرة.

(٥) حمزة بن حبيب الزيات (ت١٥٦هـ) من قراء الكوفة أيضاً.

(٦) نافع بن عبد الرحمن (ت١٦٩هـ) قارئ أهل المدينة.

(٧) عليّ بنِ حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ) نشأ في الكوفة، ثم انتقل إلى بغداد، فكان يُقرئ فيها.

وقال ابن مجاهد بعد أن فصَّل أحوال هؤلاء القراء: «فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام، خلفوا في القراءة التابعين، وأجمعت على قراءتهم العوامُّ من أهل كل مصر من هذه الأمصار التي سَمَّيتُ وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الأمصار».[١]

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وساعد على تثبيت وانتشار عمل ابن مجاهد عاملان:

الأول: حاجة الناس إلى تقييد القراءات وتمييز أصحها حتى يُقتدى به، والثاني: سعة علمه في القراءات، قال ابن النديم عنه أنه: «آخر من انتهت إليه الرياسة بمدينة السلام في عصره... وكان واحد عصره غير مدافع».[٢] وقيل عنه بأنه (أول من سبَّع السبعة)[٣] وإذا ما سمعنا اليوم من يذكر القراءات السبع، أو القراء السبعة فاعلم أنهم هؤلاء الذين ذكرهم ابن مجاهد.

---

(١) المصدر نفسه، (ص٨٧).

(٢) الفهرست، (ص٣٤).

(٣) ابن الجزري: «غاية النهاية»: (١/ ١٣٩).

وهناك تفصيلات كثيرة تتعلق بتاريخ القراءات وأصولها تكفلت ببيانها الكتب المطولة المؤلفة في علوم القرآن عامة والقراءات خاصة، وما ذكرته كافٍ -إن شاء الله- في تعريف القارئ على نحو موجز بتاريخ هذا العلم.[1]

المطلب الثاني: مناقشة دعوى أنَّ أصل القراءات راجع إلى طبيعة الخط:

من المعلوم لدى الكافة أن الله تعالى لم ينزِّل القرآن على رسول الله ﷺ مكتوباً في قراطيس، وإنما أنزله وحياً على قلبه، فكان يحفظه في ساعة التلقي، ثم يأمر كُتَّاب الوحي بكتابة ما أُنزل عليه،[2] وتوفى رسول الله ﷺ «ولم يكن القرآن جُمع في شيء، وإنما كان في الكرانيف والعُسب».[3] وهي القطع التي كان يُكتب فيها آنذاك، وقد قام الصحابة بجمعه في صحف منظمة في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ[4] ونسخوا منها في خلافة عثمان ﷺ عدداً من المصاحف، أرسلت إلى الأمصار الإسلامية، لكي يعتمد عليها المسلمون في كتابة القرآن.[5]

وكانت الكتابة العربية في ذلك الزمان خالية من نقاط الاعجام التي تُمَيِّز بين

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ولمن لم يطلع من قبل على وجوه القراءات أقدم هذا المثال، وهو في ما اختلف فيه القراء السبعة في سورة الفاتحة: (١) قرأ عاصم والكسائي (مَالِكِ) والباقون من السبعة (مَلِكِ). (٢) قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر والكسائي (الصراط)، وابن كثير في بعض الروايات عنه (السراط)، وحمزة بين الصاد والزاي. (٣) قرأ حمزة (عَلَيْهُم) بضم الهاء، والباقون بكسرها. (٤) قرأ ابن كثير في الوصل (عليهمو)، والباقون بإسكان الميم من غير واو. (ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة، (ص١٠٤)، والداني: التيسير، (ص١٨).

(٢) أبو شامة: «المرشد الوجيز»، (ص٣٣).

(٣) الطبري: «جامع البيان»: (١/ ٢٨)، والسيوطي: «الاتقان»: (١/ ١٦٤).

(٤) البخاري: «الجامع الصحيح»: (٦/ ٨٩و٢٢٥و (٩/ ٩٢)، وابن النديم: «الفهرست»، (ص٢٧)، والزركشي: «البرهان»: (١/ ٢٣٣).

(٥) البخاري: «الجامع الصحيح»: (٦/ ٢٢٦)، وابن النديم: «الفهرست»، (ص٢٧-٢٨).

الحروف المتشابهة في الصورة، ومن علامات الحركات وما شاكلها.[1] وقد كُتب القرآن في المصاحف بتلك الكتابة الخالية من كل علامة حتى قام أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) وتلامذته، والخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) من بعدهم، بوضع العلامات وإعجام الحروف[2]، على نحو ما نستخدمه في كتابتنا اليوم.

وقد خطر ببال مَنْ قلَّت معرفته بتاريخ القرآن وقراءاته، أو ساءت نيَّته، أنَّ القراءات ناتجةٌ عن جهل القراء في معرفة وجه القراءة الصحيحة حين قرأوا في تلك المصاحف ذات الكتابة المجردة، عندما رأى أن بعض القراءات يختلف في الحركات، وبعضها يختلف في إعجام الحروف، ولم يكن هذا القول مأخوذاً به عند العلماء السالفين إلا حمزة الأصفهاني، فإنه يظهر من بعض كلامه أنه يميل إلى الأخذ به، ولكن المستشرقين تلقَّفوا الفكرة واعتمدوها في تفسير اختلاف القراءات، حتى انطلى الأمر على عدد من الباحثين المحدثين من العرب، فنقلوا الفكرة وردَّدوها في كلامهم.

أما حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت٣٦٠هـ) فإنه ألَّف كتاب (التنبيه على حدوث التصحيف) وذكر في مقدمته أخباراً عمَّن صحَّف في القرآن، أي قرأ في المصحف فأخطأ في القراءة، لأنه لم يتعلم القرآن مشافهة عن العلماء بالقراءة،[3] وما ذكره في هذا الموضع لا يتضمن أي طعن في أصل القراءات، بل إنه ليقدم الدليل على أن العلماء ميزوا بين ما هو قراءة مأثورة، وما هو تصحيف ناتج عن جهل القارئ بما يقرأ.

ولم ينته الأمر لدى حمزة الأصفهاني عند هذا الحد، فقد عاد في الباب الرابع من كتابه ليتحدث عن القراءات مرة أخرى، وجعل عنوانه «الباب الرابع في ذكر اختلافات من القرآن، احتمل هجاؤها لفظين، فمن أجل أنه قرئ بهما صارتا

(١) الداني: «المحكم»، (ص١٧٦) وسهيلة الجبوري: «أصل الخط العربي»، (ص١٤٨).

(٢) ينظر في تفاصيل ذلك كتاب «المحكم في نقط المصاحف» للداني، وكتابي: «رسم المصحف»، الفصل الخامس.

(٣) «التنبيه» (ص٣٦-٤١) (طبع بغداد)، و(ص٤-٦) (طبع دمشق).

قراءتين»[1]. فذكر واحداً وثلاثين موضعاً من القرآن أورد لكل منها قراءتين، بعضها غير معروف في القراءات الصحيحة ولا الشاذة، ولا يتسع المقام لتفصيلها، ثم أردف ذلك بقوله في آخر الباب: «فأما ما أصيب في هجائه ولم يُصَب في معناه فهو ...» فذكر ثمانية مواضع قُرئت على نحو يخالف الصواب مما يدخل في دائرة التصحيف.[2]

وطريقة معالجة حمزة الأصفهاني لموضوع القراءات في كتابه تبعث على الريبة في مقصده، لا سيما في الباب الرابع، الذي تقدَّمته أبواب تحدَّث فيها عن تصحيفات العلماء وما وقع في رواية الشعر من التصحيف، وتبعته أبواب تحدّث فيها عن التصحيف في النثر والشعر عمداً لا سهواً. وإن أقرب ما يقع في نفس قاريء الكتاب أن ما ورد في الباب الرابع هو من جنس ما ورد في الأبواب التي تقدَّمته وتبعته.

والأصل أن يُحمل الكلام على أحسن الوجوه ما أمكن، ولكن التواء عبارة حمزة الأصفهاني، وما فيه من تعصب ظاهر على العرب والعربية[3]، يحمل على الشك في سلامة مقصده، ومَن يقرأ ما ذكره عن القراءات في الكتاب يخرج بنتيجة مؤداها أن من القراءات ما نتج عن الخط، لا سيما إذا كان القاريء غير مُلِمٍّ بتاريخ القراءات على نحو يدفع عنه هذه الشبهة.

مركز تحقيقات كامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) «التنبيه» (ص٢٢٩، ص ١٥٤) على التوالي السابق.

(٢) «التنبيه» (ص٢٣٥) و(ص١٥٨).

(٣) كان حمزة الأصفهاني شعوبياً، وقد ذكر له ابن النديم كتاب الشعوبية (الفهرست ص ١٥٤)، وقال عنه القفطي في إنباه الرواة (١/ ٣٣٥): «وكان ينسب إلى الشعوبية، وأنه يتعصب على الأمة العربية»، وذكر أنه ألَّف كتاب «الموازنة بين العربي والعجمي» لعضد الدولة البويهي، قال الزركلي عنه (الأعلام ٢/ ٢٧٧): «تعصب فيه للفارسية».

ويبدو أن شعوبيته كانت مشهورة لدى المتقدمين، فقد قال أبو منصور الثعالبي في كتابه (فقه اللغةص٢٢٦) وهو يعلق على ادعاء حمزة أن كلمة معينة من المعرَّب: «وإنما تَقَوَّلَ هذا التعريب وأمثاله تكثيراً لسواد المعرَّبات من لغات الفرس، وتعصباً لهم».ولعل شعوبيته هي التي تفسر لنا تحامله على الكتابة العربية وقوله إنها ضعيفة الأساس. وموضوعة على غير حكمة (ينظر: التنبيه ص ٧٢ و ٧٤ و ٨١ من طبعة بغداد)، ولذلك تفصيل ليس هذا موضعه.

أما المستشرقون فإن كبيرهم في هذه القضية إجناتس جولد تسيهر المستشرق اليهودي المجري الأصل المتوفى سنة (١٩٢١م)[١] فقد صرح بتلك الدعوى الباطلة في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) وعرض عدداً من الأمثلة التي حاول أن يستدل بها على صحة مذهبه، وذلك حيث قال: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات (يعني القراءات) إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدِّم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذن فاختلاف هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحد للقالب من الحروف الصامتة، كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تُتَحَرَّ الدقة في نقطه أو تحريكه، ولبيان هاتين الحقيقتين قد تكفي بعض أمثلة فحسب».[٢] وذكر ستة أمثلة لاختلاف القراءات الناشئة عن خلو المصاحف من النقط، وثلاثة أمثلة تتعلق بالحركات.[٣]

مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

وتابع جولد تسيهر عددٌ من المستشرقين منهم بروكلمان الذي قال: «فتحت الكتابة، التي لم تكن قد وصلت بعد إلى درجة الكمال، مجالاً لبعض الاختلاف في القراءة».[٤] ومنهم برتزل الذي قال: إن الرسم القديم «هو الذي أدى إلى اختلاف طائفة من القراء، لأن الكلمة المكتوبة بالرسم القديم ربما احتملت قراءتين أو أكثر».[٥] ومنهم أيضاً آرثر جفري الذي قال: «وكانت هذه المصاحف (يعني ما كتب

(١) ينظر عنه: الزركلي: «الأعلام»: (١/ ٨٤).

(٢) «مذاهب التفسير الإسلامي» (ص٨-٩).

(٣) المصدر نفسه، (ص٩-١٤).

(٤) «تاريخ الأدب العربي» (١/ ١٤٠).

(٥) مقدمة تحقيق كتاب «التيسير» للداني، ص (ي).

في خلافة عثمان) كلها خالية من النقط والشكل، فكان على القارئ نفسه أن يَنْقُطَ ويُشْكِلَ هذا النص على مقتضى معاني الآيات».[1] وهو أكثر أصحابه غلواً في هذا الأمر حين جعل قراءة القرآن شبيهة بقراءة النصوص الكتابية القديمة التي يختلف في قراءتها المكتشفون والآثاريون.

وقد انزلق إلى نقل تلك الدعوى الباطلة عدد من الباحثين العرب المحدثين[2]، تقليداً للمستشرقين وغفلة عن وجه الحقِّ المبين، وإذا كان للمستشرقين عذرهم، وللشعوبيين حقدهم، الذي حملهم على سلوك تلك الطريق، فما عذر من تربّى في البيئة العربية وعرف المصادر والكتب؟ اللهمَّ إلا التقليد الأعمى الذي يشغل صاحبه عن طلب الدليل.

إن وجود قراءات قرآنية تختلف في الحركات أو نقاط الإعجام أمر معروف نصت عليه كتب القراءات ورواه القراء وقرأوا به، والقضية الأساسية هنا هي في تحديد مصدر ذلك الاختلاف، وقبل أن نمضي في بيان السبب الحقيقي لوجود تلك القراءات نذكر أمثلة منها، من كلا النوعين:

١- ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران:١٥٦]، قرئ (يعملون) بالياء.[3]

٢- ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٩]، قرئ (كثير) بالثاء.[4]

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب «المصاحف» لابن أبي داود، (ص٧).

(٢) منهم الدكتور جواد علي في مقالته (لهجة القرآن الكريم) المنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثالث- الجزء الثاني، ١٩٥٥ (تنظر ص٢٨٩)، ومنهم الدكتور عبدالله خورشيد في كتابه: «القرآن وعلومه في مصر» (ص٩١) ومنهم الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه: «دراسات في تاريخ الخط العربي»، (ص٤٢)، ومنهم أبو القاسم الخوئي -من علماء الشيعة- في كتابه: «البيان في تفسير القرآن»، (ص١٧٩).

(٣) ابن مجاهد: «كتاب السبعة» ، (ص٢٠٧)، والداني: «التيسير»، (ص٩١).

(٤) المصدران السابقان، (ص١٨٢)، و(ص٨٠) على التوالي.

٣- ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس:٦١]، قرئ (يَعْزِب) بكسر الزاي.[١]

٤- ﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، قرئ (كلُّه) برفع اللام[٢].

هذه القراءات تحتمل أمرين: الأول أن تكون ناتجة عن طبيعة الخط المجرد الذي كُتبت به المصاحف الأولى، أي أن القارئ لم يدرِ كيف يقرأ فاجتهد وقرأ بما أدّاه إليه اجتهاده، والثاني أن تكون تلك القراءات مروية عن الصحابة الذين أخذوا القرآن عن النبي ﷺ ثم نقلها القراء عنهم بعد ذلك.

أما الاحتمال الأول، فليس عليه دليل معقول أو منقول، وهو مجرد احتمالٍ ظني يفتقر إلى ما يؤيده، وهو يشبه عند القائلين به اختلاف العلماء في قراءة النصوص القديمة المنقوشة على الحجر أو المرقومة على الطين، وشتان ما بين الأمرين، وقد ينفع في تصور الفرق بين القراءات القرآنية والاختلاف في قراءة النصوص القديمة ذِكْرُ مثال لاختلاف العلماء في قراءة نص مكتوب على الحجر ويرجع تاريخه إلى الحقبة التي كُتبت فيها المصاحف في خلافة عثمان بن عفان ﷺ وهو ما يُعرف بنقش القاهرة، الذي اكتشفه الأستاذ حسن محمّد الهواري سنة (١٩٢٩م) من بين عدد كبير من قطع الحجر والرخام المكتوبة بالخط الكوفي، والمحفوظة في دار الآثار العربية في القاهرة، وهي مجلوبة من أقدم المقابر الإسلامية في القاهرة وأسوان، وهو مؤرخ بسنة إحدى وثلاثين هجرية، وإليك صورته:

وقد اختلف الباحثون في قراءة عدد من كلمات النص على النحو الآتي:[٣]

---

(١) المصدران السابقان، (ص٣٢٨)، و(ص١٢٢).

(٢) المصدران السابقان، (ص٢١٧) و(ص٩١).

(٣) ينظر: إسرائيل ولفنسون: «تاريخ اللغات السامية»، (ص٢٠٢)، وخليل يحيى ناجي: «أصل الخط العربي»، (ص٩١)، وإبراهيم جمعة: «دراسة في تطور الكتابات الكوفية»، (ص١٣٠)، وسهيلة الجبوري: «أصل الخط العربي» ، (ص١٠٩)، ويحيى: «موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة» ، (ص٣٨).

١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر

٢- لعبد الرحمن بن خير (أو جبر) الحجري (أو الحجازي) اللهمَّ اغفر له.

٣- وأدخله في رحمة منك واننا (أو: آتنا، إيانا) معه.

٤- استغفر له إذا قرأ هذا الكتب (أي: الكتاب).

٥- وقل آمين وكتب هذا.

٦- الكتب (أي: الكتاب) في جمدى الآ.

٧- خر من سنت (أي سنة) احدى و

٨- ثلثين (أي ثلاثين).

إننا ونحن نتابع قراءة هذا النص نجد أنفسنا أمام اختلافات حقيقية في نطق عدد من الكلمات، وهي ناتجة من اجتماع أمرين: الأول: خلو الكتابة من النقاط والحركات، والثاني: انقطاع الصلة بين كاتب النص وقرَّائه، فقد مضى أكثر من ألف وثلاث مائة سنة والنص مطمور في إحدى المقابر، وفجأة اكتشفه الباحثون، وهم لا يعرفون عن كاتبه شيئاً، ولم يسمعوا نطقه للكلمات التي سطّرها، ولم يبق أمامهم من وسيلة إلا التأمل في صور الحروف وسياق الكلام لإكمال ما في الكتابة من نقص في تحديد النطق الصحيح الكامل للكلمات المرسومة، ومن ثم اختلفوا في قراءة عدد من كلماته.

إن ما ذهب إليه جولد تسيهر ومَن تابعه يصلح لتفسير اختلاف العلماء في قراءة نقش القاهرة وغيره من النصوص القديمة، ولكنه لا يصلح أبداً لتفسير وجود القراءات القرآنية، وذلك لعدم انقطاع الصلة بين مَنْ يقرأ القرآن وبين مصدره -أعني المبلّغ عن ربه النبي ﷺ- فإذا كانت المصاحف مكتوبة بالخط المجرد من النقاط والحركات فإنها لم تكن الأساس الأول في تَعَلُّم القراءة، فقد كان هناك جهد شفوي لحفظ القرآن وتعليمه، وقد أبعد ذلك الجهد الشفهي في التلقي والتعليم للقراءة أي احتمال لصحة نظرية جولد تسيهر في تفسير اختلاف القراءات القرآنية.

ويمكن تقديم عددٍ من الأدلة التاريخية التي تنفي أن تكون القراءات ناتجة عن حيرة القراء في نطق الكلمات المرسومة في المصاحف، منها:

(١) كانت القراءات القرآنية موجودة ومعروفة في زمن النبي ﷺ قبل أن تُكتب المصاحف، وكان المسلمون في ذلك الوقت يعتمدون على المشافهة والحفظ في قراءة القرآن، أكثر من اعتمادهم على كتابة القرآن في المصحف، ونحن لا نريد أن ننفي هنا كتابة القرآن في عصر النبوة، وإنما نشير إلى أن ما كُتب من القرآن في المصحف في ذلك العهد لم يكن بمعزل عن المشافهة في القراءة والتعليم، وقد قال العلامة ابن الجزري كلمة جامعة في ذلك، وهي إن: «الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب».(١)

ومن أوضح الأدلة على وجود القراءات في زمنه ﷺ قبل وجود المصاحف ما نقله الطبري في تفسيره من أنه «قرأ على رسول الله ﷺ من كل خمسٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللغة، فرضي قراءتهم كلهم».(٢) وقوله (في اللغة) يعني: في النطق، وأوضح من ذلك ما ورد في كتب الحديث من الروايات المتواترة حول تنازع الصحابة في قراءة بعض ألفاظ الذكر الحكيم ولجوئهم إليه ﷺ وقوله لهم: «إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه». أو «فاقرأوا كما عُلّمتم».(٣)

(٢) لو كان الرسم هو السبب في نشأة القراءات، لما وجدنا قراءات مخالفة للرسم أو خارجة عليه، فمثال القراءات المخالفة للخط قراءة مَنْ قرأ في الفاتحة (السراط) بالسين، وهي مرسومة بالصاد، فمثل هذه القراءة لا يمكن أن تكون ناتجة عن الخط قطعاً، وهناك من الأمثلة على ذلك ما يطول ذكره.

---

(١) «النشر» (١/ ٦).

(٢) «جامع البيان» (١/ ١٩)، وينظر: أبو شامة: «المرشد الوجيز» (ص١٣٠).

(٣) البخاري: «الجامع الصحيح»: (٦/ ٢٢٧)، والطبري: «جامع البيان»: (١/ ١١-٢٠)، وأبو شامة: «المرشد الوجيز»، (ص٧٧-٨٩).

(٣) لو كان الرسم هو السبب في نشأة القراءات لوجب قبول كل قراءة احتملها خط المصحف، فما دامت القراءات هي اجتهاد القراء في قراءة المرسوم فإنه لا فضل للواحدة منها على غيرها، ونجد ها هنا البيان الواضح لخطأ مَنْ ذهب ذلك المذهب في تفسير القراءات، وذلك من خلال قصة حماد الراوية (ت١٥٥هـ)[١]، الذي كان مشغولاً برواية الشعر عن تعلم قراءة القرآن، فلما أراد أن يحفظ القرآن قرأه في المصحف، قال أبو أحمد العسكري: «روى الكوفيون أن حماداً الراوية كان حفظ القرآن من المصحف، فكان يصحُف نيِّفاً وثلاثين حرفاً»[٢].

وقد تناقلت كتب التصحيف وغيرها أمثلة مما صحَّفه حمادُ الراوية على سبيل التمثيل والتحذير من الوقوع فيما وقع فيه، ومما ذكرته:[٣]

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٧٠]، صحَّفها إلى: النخل، بالخاء.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:٢]، صحَّفها إلى: غرَّة، بالغين والراء.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، صحَّفها إلى: يعنيه، بالعين.

إن موقف العلماء مما صحفه حماد الراوية في قراءته للقرآن، يدلك إلى أن القراءات الصحيحة التي اشتهر بها القراء السبعة ليست ناشئة عن الخط، وإلا لكان حماد أحد القراء المشهورين، بدل أن كان مثالاً لسوء التدبير وتنكب سواء السبيل في تعلم القرآن مشافهة من العلماء بالقراءة.

وتعبِّر عن هذه القضية كلها كلمة قالها الناس في الزمن الأول، وهي «لا تأخذوا القرآن من مُصْحَفي، ولا العلم عن صحفي»[٤] فالمصحفي هو «مَن لم يقرأ القرآن

---

(١) ينظر عنه : الزركلي: «الأعلام»: (٢/ ٢٧١).

(٢) «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف»، (ص١٢).

(٣) ينظر: حمزة الأصفهاني: «التنبيه»، (ص٣٨) (طبع بغداد)، والعسكري: «تصحيفات المحدثين» ، (ص٣٣).

(٤) العسكري: «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف» ، (ص١٣)، و «تصحيفات المحدثين» (له)، (ص٤)، والعطار: «التمهيد»: (ص١٢٦و-١٢٦ظ).

على القراء ويتعلم من ألفاظهم»[١] وإنما اعتمد على القراءة في المصحف فقط، وقال الخليل: الصَّحَفي هو الذي يروي الخطأ عن قراءة الصحف بأشباه الحروف.[٢] وكل ذلك تجنباً للوقوع في الخطأ عند قراءة القرآن.

(٤) وكان الصحابة-رضي الله عنهم- حريصين على تعليم الناس القراءة مشافهة، وعدم الاكتفاء بالمصاحف، ومن أوضح الأدلة على ذلك أن عثمان بن عفان ﷺ حين نُسخت المصاحف في خلافته أرسل مع كل مصحف بعث به إلى الأمصار قارئاً يُعَلِّمُ الناس القراءة في المصحف، فبعث عبدالله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السُّلميَّ مع الكوفي، وعامر بن عبد قيس مع البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ في المصحف المدني.[٣] وما ذلك إلا لضبط القراءة وترك الاعتماد على المصحف فقط.

وخلاصة القول هي: أن اختلاف القراءات في الحركات ونقاط الإعجام حقيقة ثابتة لا ينكرها أحد، لكن الذي لم يثبت قط هو القول إن هذه القراءات نشأت عن طبيعة الخط المجرد، وإنما أصل كل القراءات الثابتة هو الرواية والنقل عن الصحابة الذين أخذوا القرآن عن النبي ﷺ وتعلموا القراءة منه.

المطلب الثالث: مناقشة دعوى أن القراءات اجتهاد من القراء:

ذهب بعض مَن كتب مِنَ المحدثين في القراءات الى: «أنَّ القراءات تستند إلى اجتهاد القراء وآرائهم».[٤] وهذه الدعوى أبعد مدىً وأشد خطراً من سابقتها، ويترتب عليها التشكيك في أصل ما نقرأ من القرآن، إذ ليس من السهولة الفصل بين القرآن

(١) العطار: «التمهيد» (١٢٧).

(٢) العين: (٣/ ١٢٠).

(٣) المارغني: «دليل الحيران» (ص١٧).

(٤) أبو القاسم الخوئي -عالم شيعي-: «البيان في تفسير القرآن»: (١/ ١٦٣) وأيضاً (١/ ١٧٧و١٧٨).

وقراءته، وهي تفتح باب التصرف في القراءة ما دام الأمر اجتهاداً في أساسه، وهي إلى جانب ذلك تنال من أمانة القراء من الصحابة ومن جاء بعدهم، لأنهم تركوا ما تعلموه من النبي ﷺ وقرأوا باجتهادهم!.

وهذه الدعوى على الرغم مما تنطوي عليه من قضايا كبيرة ومخاطر جسيمة لا تستند إلى دليل، بل إن حقائق التاريخ وحال القراء وأقوالهم ناطقة بأن القراءة سنَّة لا مجال فيها للرأي والاجتهاد، ولم أعثر على قول أو رواية تؤيد تلك الدعوى، اللهمَّ إلا ما نسبه الكليني إلى أبي جعفر رحمه ا لله أنه قال: «إن القرآن واحدٌ نزل من عند واحدٍ، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة».[1] وهذه الرواية ليست ذات دلالة بينة على أن القراءات اجتهاد من القراء، أو أنها مبنية على ما تهديهم إليه عقولهم، ويكفي في ردِّ تلك المقولة وبيان زيفها أن نذكر الحقائق التاريخية الآتية:

(١) كانت عناية رسول الله محمد ﷺ بتعليم القرآن لأصحابه عظيمة، فكان يقرأه على أصحابه،[2] وإذا دخل رجل في الإسلام أمره بقراءة القرآن قبل كل شيء، وكان يقول لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه وعلموه القرآن»،[3] وكان المنهج التعليمي الذي رسمه لتعلم القرآن فيه من الحرص على ضبط القراءة ما لا يخفى على أحد، فقد قال أبو عبد الرحمن السُّلميُّ، وهو الذي بعثه عثمان بن عفان مع مصحف أهل الكوفة: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود , وأبي بن كعب رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم عشر آيات، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً».[4] وكان يأمرهم بالتمسك بما تعلموه من قراءة القرآن الكريم بقوله:

---

(١) الكليني: «الأصول من الكافي»: (٢/ ٦٣٠).

(٢) ابن حجر: «فتح الباري»: (٢/ ٥٥٦).

(٣) الطبري: «تاريخ الرسل والملوك»: (٣/ ١٣٥٤).

(٤) ابن سعد: «الطبقات الكبرى»: (٦/ ١٧٢)، والطبري: «جامع البيان» (١/ ٣٦)، وابن مجاهد: «كتاب السبعة» (ص٦٩)، والحاكم: «المستدرك»: (١/ ٥٧٧).

«أقرأوا كما عُلمتم».[1]

وحين كثر المسلمون في عهده ﷺ وانتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة أرسل من الصحابة مَن كان معروفاً بضبط القراءة وحفظ القرآن لتعليم الناس القراءة، فبعث مصعب بن عمير إلى المدينة بعد بيعة العقبة، وقبل هجرته ﷺ «وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمَّى المقرئ في المدينة مصعب».[2] وسار الخلفاء الراشدون من بعده على سنّته، فقد أرسل عمر بن الخطاب عبدالله بن مسعود إلى الكوفة وأبا موسى الأشعري إلى البصرة لتعليم أهلها القرآن والفقه،[3] وأرسل معاذ بن جبل وأبا الدرداء وعبادة بن الصامت إلى الشام لتعليم الناس هناك قراءة القرآن،[4] ويظهر ذلك الحرص على تحري الدقة في القراءة باختيار الصحابة المشهورين بضبطها لتعليم الناس، ولم يلجأ الخلفاء إلى إرسال المصاحف بدلاً من القراء، ثم تَرْكِ الناس يقرأون باجتهادهم، وحين أرسلت المصاحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث مع كل مصحف قارئاً مشهوراً حتى لا تنقطع سلسلة التلقي والمشافهة بين مَن يقرأ في تلك المصاحف وبين رسول الله ﷺ.

(٢) ردد الصحابة والتابعون قولاً يعبر عن تمسكهم بما تعلموه من قراءة القرآن، وهو قولهم: «القراءة سنّة»، روي ذلك عن زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول ﷺ وعن غيره، ونقل ابن مجاهد عن محمّد بن المنكدر أنه قال: قراءة القرآن سنّة يأخذها الآخِر عن الأول، وأن عامراً الشعبي قال: القراءة سنّة فاقرأوا كما قرأ أوّلوكم، وأن عروة بن الزبير قال: قراءة القرآن سنّة من السنن، فاقرأوه كما عُلمتوه.[5]

(١) الطبري: «جامع البيان» (١/ ٢٠)، والآجري: «أخلاق حملة القرآن» (ص ٩٧).
(٢) ابن هشام: «السيرة النبوية»: (١/ ٤٣٤)، وابن حجر: «فتح الباري» (٨/ ٦٩٤).
(٣) ابن مجاهد: «كتاب السبعة»، (ص ٦٦)، وأبو شامة: «المرشد الوجيز» (ص ١٤٩).
(٤) ابن سعد: «الطبقات الكبرى»: (٢/ ٣٥٦).
(٥) كتاب السبعة، (ص ٥٠-٥٢).

وقد تردد صدى تلك المقولة عبر العصور، فهذا سيبويه يقول في الكتاب «إلا أن القراءة لا تخالف، لأن القراءة سنّة»،[1] وقال الزجاج: «لأن السنّة تتبع في القرآن، ولا يلتفت فيه إلى غير الرواية الصحيحة التي قرأ بها المشهورون بالضبط والثقة»،[2] وقال أبو علي النحوي: «وليس كل ما جاز في قياس العربية تسوغ التلاوة به، حتى ينضم إلى ذلك الأثر المستفيض بقراءة السلف له وأخذهم به، لأن القراءة سنّة».[3] وهذه الأقوال شديدة الوضوح في دلالتها على أن القراءات لا مجال فيها للاجتهاد والرأي.

وإذا أردت دليلاً أكثر وضوحاً على ما نقول فإليك ما قاله أبو عمرو بن العلاء، وهو عالم العربية المشهور وأحد القراء السبعة الأعلام، سأله تلميذه أبو زيد الأنصاري، فقال: «قلت لأبي عمرو: أكلُّ ما أخذته وقرأت به سَمِعْتَه قال: لو لم أسمعه لم أقرأ به، لأن القراءة سنّة».[4] وقال تلميذه الآخر الأصمعي: «سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قُرئ به لقرأت حرف كذا وحرف كذا كذا».[5] ولم يكن أبو عمرو متفرداً بهذا الموقف، بل يشاركه فيه جميع القراء المشهورون، وقد قال مكي بن أبي طالب: «والقراءات الثابتة كلها من السنّة التي لا مدفع فيها لأحد».[6]

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

(٣) ومما يبيِّن أيضاً خطأ القول بأن القراءات اجتهاد من القراء ما تعرضت له قراءة ابن مُحيصن، وعيسى بن عمر، وابن مِقْسم العطار، حين أرادوا القراءة على ما تقتضيه قواعد اللغة من غير التفات إلى الرواية والنقل عن أئمة القراءة من الإنكار والاهمال والاندثار.

---

(١) الكتاب: (١/ ١٤٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه: (١/ ٧).

(٣) الحجة: (١/ ٢٩).

(٤) مكي: «التبصرة»، (ص٢٣٥).

(٥) ابن مجاهد: «كتاب السبعة» (ص٤٨)، والذهبي: «معرفة القراء»: (١/ ٨٥).

(٦) التبصرة، (ص٢٣٠).

أما ابن مُحَيْصن (وهو محمّد بن عبد الرحمن بن مُحيصن المتوفى سنة ١٢٣هـ) فإنه كان أحد قراء مكة في زمانه، وكان نحوياً، وقال ابن مجاهد: «كان لابن محيصن اختيار في القراءة على مذاهب العربية، فخرج به عن إجماع أهل بلده فرغب الناس عن قراءته، وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتّباعِهِ».[1]

وأما عيسى بن عمر البصري (ت١٤٩هـ) فإنه «كان عالماً بالنحو، غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية، يفارق قراءة العامة، ويستنكرها الناس، وكان الغالب عليه حبُّ النصب ما وجد إليه سبيلاً... والذي صار إليه أهل البصرة فاتخذوه إماماً: أبو عمرو بن العلاء».[2]

وأما ابن مقسم العطار (وهو محمّد بن الحسن البغدادي ت ٣٥٤هـ)، فإنه كان «من أحفظ الناس لنحو الكوفيين وأعرفهم بالقراءات، وله في التفسير ومعاني القرآن كتاب جليل سماه «كتاب الأنوار»، وله أيضاً في القراءات وعلوم النحو تصانيف عدة»[3]، ولكنه على جلالة قدره وسعة علمه «عمد إلى حروف من القرآن فخالف الإجماع وقرأها وأقرأها على وجوه ذكر أنها تجوز في اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم، فأنكروه عليه، وارتفع الأمر إلى السلطان، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء فأذعن بالتوبة وكتب محضر توبته، وأثبت من حضر ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه».[4]

وقد صارت قصة ابن مقسم حديث العلماء والمؤرخين منذ وقته حتى عصرنا، وذلك لأن الإجماع حاصل على أن القراءات لا مجال للاجتهاد فيها ولا رأي ولا

(١) كتاب السبعة، (ص٦٥)، وعلم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٤٨)، وابن الجزري: «غاية النهاية» (٢/ ١٦٧).

(٢) علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٣٠)، وابن الجزري: «غاية النهاية» (٢/ ٦١٣).

(٣) الخطيب البغدادي: «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٠٦).

(٤) المصدر نفسه: (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

قياس على مذاهب العربية[1] ومن ثم لا نستغرب شدة النكير الذي تعرض له، من مثل قول معاصره عبد الواحد بن عمر البغدادي المشهور بأبي طاهر بن أبي هاشم (ت٣٤٩هـ) فيه وفي ما ذهب إليه: «وقد نبغ نابغ في عصرنا هذا فزعم أن كل ما صحّ عنده وجه في العربية لحرف من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، فابتدع بقِيلِهِ ذلك بدعةً ضل بها قصد السبيل، وأورط نفسه في مزلة عظمت بها جنايته على الإسلام وأهله، وحاول إلحاق كتاب الله من الباطل ما لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، إذ جعل لأهل الإلحاد في دين الله بسيئ رأيه طريقاً إلى مغالطة أهل الحق بتخير القراءات من جهة البحث والاستخراج بالآراء دون الاعتصام والتمسك بالأثر... »[2].

وفي قصص هؤلاء الثلاثة الحجة الواضحة والدليل البيِّن على بطلان دعوى من ادّعى أن القراءات اجتهاد من القراء أنفسهم، وكان أبو عمرو الداني الأندلسي (ت٤٤٤هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة في القراءات وعلوم القرآن قد قال كلمة موجزة معبرة عن موقف القراء من هذه القضية وهي قوله: «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت لا يردها قياس عربية ولا فُشُوُّ لغة، لأن القراءة سنّةٌ متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»[3].

المطلب الرابع: خاتمة في توضيح أصول قراءتنا التي نقرأ بها الآن:

ولا أريد أن أضع القلم جانباً حتى أقف بالقارئ على أصول القراءة التي نقرأ بها

(١) ينظر: ابن الأنباري: «نزهة الألباء»، (ص٢١٦)، والذهبي: «معرفة القراء» (١/ ٢٤٨)، وابن الجزري: «غاية النهاية»: (٢/ ١٢٤)، والسيوطي: «بغية الوعاة»: (١/ ٨٩).

(٢) نقلاً عن: «تاريخ بغداد» للخطيب: (٢/ ٢٠٧).

(٣) جامع البيان (ص١٧١)، ونقله السيوطي: «الاتقان» (١/ ٢١١).

القرآن الكريم في عصرنا، ليطمئن إلى أنها ليست ناشئة عن جهل القارئ بما هو مكتوب في المصحف، ولا هي اجتهاد منه في حمل الكلام على ما هو أنسب وأليق بالمعاني، وإنما هي منقولة عن أكابر أصحاب رسول الله ﷺ من العلماء بالقرآن وقراءته، وكذلك شأن القراءات المشهورة الأخرى.

إن قراءة القرآن في زماننا هي قراءة عاصم بن أبي النَّجود الكوفي المتوفى سنة (١٢٧هـ)، وكان متقدماً أدرك عدداً من أصحاب رسول الله ﷺ فهو من التابعين،[١] وكانت قراءته مشهورة ذائعة، قال مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ): «وهو من جِلَّةِ التابعين فقراءته مختارة عند من رأيت من الشيوخ، مقدمة على غيرها، لفصاحة عاصم ولصحة سَنَدِها وثقة ناقلها».[٢] ويظهر من قول أبي حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ) عن قراءته: «وهي القراءة التي ينشأ عليها أهل العراق».[٣] أنها كانت قد انتشرت وسادت منذ قرون طويلة في بلدان العالم الإسلامي، حتى صارت في زماننا الوحيدة تقريباً التي يقرأ الناس بها القرآن الكريم.

وقد ذكر مكيٌّ أنَّ من بين عوامل سيادتها فصاحة عاصم، وهو أمر تؤيده المصادر التاريخية، فقد قال ابن مجاهد: «وكان عاصم متقدماً في زمانه، مشهوراً بالفصاحة، معروفاً بالاتقان»[٤] ونقل الذهبي عن تلميذه أبي بكر بن عياش قوله: «كان عاصم نحوياً فصيحاً».[٥] وقال ابن الجزري عنه إنه «جمع بين الفصاحة والاتقان والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن».[٦]

---

(١) علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٦٥)، والذهبي «معرفة القراء» (١/ ٧٣).

(٢) «التبصرة» (ص٢١٩).

(٣) «البحر المحيط» (١/ ١١).

(٤) «كتاب السبعة» (ص٧٠).

(٥) الذهبي: «معرفة القراء» (١/ ٧٥).

(٦) «غاية النهاية»: (١/ ٣٤٧).

وكان عاصم محدثاً أيضاً، فقد روى عن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ وبلغ من علو منزلته أن روى عنه جماعة من أجلاء التابعين،[1] وكان ثقة عند علماء الحديث، وحديثه مخرّج في كتب الحديث الستة المشهورة،[2] وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: «رجل صالحٌ خيرٌ ثقةٌ».[3]

أما أساتذة عاصم في القراءة فكان أشهرهم اثنين[4] من علماء القراءة الذين كانوا في الكوفة، وهما عبدالله بن حبيب المشهور بأبي عبد الرحمن السلمي، وزرُّ بن حبيش أبو مريم الأسدي الكوفي، قال أبو بكر بن عياش، تلميذ عاصم: «قال لي عاصم ما أقرأني أحدٌ حرفاً إلا أبو عبد الرحمن السُّلميُّ، وكان أبو عبد الرحمن قد قرأ على علي ﷺ وكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن، فأعرض على زرِّ بن حُبَيْش، وكان زرّ قد قرأ على عبدالله».[5] يعني ابن مسعود ﷺ.

أما أبو عبد الرحمن السلمي فإنه الذي جاء من المدينة مع المصحف الذي أرسله عثمان بن عفان ﷺ إلى الكوفة، على نحو ما سبق ذكر ذلك، وكان قد أخذ القراءة عن عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، ممن اشتهر بالقراءة،[6] وحين اجتمع بأمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب ﷺ في الكوفة جدد القراءة على يديه، وكان يقول: «قرأت على أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ القرآن كثيراً، وأمسكت عليه المصحف فقرأ عليٌّ، وأقرأت الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، حتى قرأ عليٌّ القرآن».[7] وظل أبو عبد الرحمن يُقرئ الناس في المسجد الأعظم بالكوفة

---

(١) علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٦٥).

(٢) وهي: صحيح البخاري ومسلم، وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه.

(٣) ينظر: ابن حجر: «تهذيب التهذيب» (٥/ ٣٨).

(٤) ذكر ابن الجزري «غاية النهاية» (١/ ٣٤٧): أن عاصماً أخذ القراءة أيضاً عن أبي عمرو الشيباني.

(٥) ابن مجاهد: «كتاب السبعة»، (ص٧٠)، وابن الجزري: «غاية النهاية»: (١/ ٣٤٨).

(٦) ابن مجاهد: «كتاب السبعة»، (ص٦٩)، وابن الجزري: «غاية النهاية»: (١/ ٤١٣).

(٧) ابن مجاهد: «كتاب السبعة»، (ص٦٩).

أربعين سنة، فلما مات أبو عبد الرحمن سنة (٧٣هـ) خلفه في موضعه عاصم.[١]

وأما زرُّ بن حبيش فقد قال عنه عاصم: «ما رأيت أقرأ من زر، وكان عبدالله بن مسعود يسأله عن العربيّة، يعني اللغة»،[٢] وكان زر قد قرأ القرآن علىعدد من علماء الصحابة بالقراءة، لكنه كان أكثر ملازمة لعبدالله بن مسعود ﷺ من غيره، في المدة التي كان فيها عبدالله في الكوفة، قال عاصم: «كان زر كثير الصحبة لعبدالله بن مسعود».[٣]

ولا يشك عاقل في أن الصحابة الذين قرأ عليهم شيوخ عاصم القرآن قد تعلموا القرآن من رسول الله ﷺ وكذلك شأن القراء الآخرين المشهورين ومرجع قراءاتهم، وعلماء القراءة ينصُّون على ذلك نصاً.[٤] وبهذا التلخيص تبطل كل شبهة تتصل بأصل القراءات القرآنية، فلا هي ناشئة من طبيعة الخط، ولا هي اجتهاد من القراء، وإنما مصدرها الأول والأخير النقل عن الصحابة عن رسول الله ﷺ.

وآخر ما يلزم بيانه في هذه العجالة هو أن لعاصم تلامذةً كثيرين، نقلوا عنه قراءته، بلغ عددهم ثمانية وأربعين، من الأئمة والعلماء.[٥] وأما من سواهم فإنه لا يحصيهم عَدٌّ، لأن مجلس عاصم وحلقته كانت في مسجد الكوفة[٦]، فيزدحم عليه الناس لتعلم القرآن، وكان عاصم يبدأ في القراءة بأهل السوق لئلا يحتبسوا عن معايشهم[٧] واشتهرت قراءة عاصم برواية تلميذه حفص بن سليمان، أبي عمر الأسدي

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) المصدر نفسه، (ص٦٨-٦٩)، وابن الجزري: «غاية النهاية»: (١/ ٤١٣).

(٢) علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٦٥). وابن الجزري: «غاية النهاية» (١/ ٢٩٤).

(٣) ابن مجاهد: «كتاب السبعة»، (ص٦٦-٦٧)، علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٦٣).

(٤) ينظر: مكي «التبصرة» (ص٢١٤)، والداني: «التيسير»، (ص٩).

(٥) علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٦٣). وابن الجزري: «غاية النهاية» (١/ ٣٤٧).

(٦) علم الدين السخاوي: «جمال القراء» (٢/ ٤٦٣).

(٧) المصدر نفسه: (٢/ ٤٤٧).

(ت١٨٠هـ) وكان حفص أضبط من روى القراءة عن عاصم، لأنه كان ربيبه ابن زوجته، وكان ينزل معه في دار واحدة، فقرأ عليه القرآن مراراً(١)، ولعلماء القراءة عناية كبيرة في نقل القراءات وضبط الأسانيد، يمكن الاطلاع عليها في مقدمات أي كتاب من كتب القراءات.

وفي الختام أرجو أن يكون ما سطرته في هذا البحث سبباً لإزالة ما علق في بعض الأذهان عن أصل القراءات، مما يختلقه ويدعو إليه بعض مَن ساءت نياتهم، واعتمل الحقد في صدورهم، من الشعوبيين الذين حقدوا على العرب بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم وأكرمهم بحمل أشرف رسالة إلى الناس، ولم يقف حقدهم عند ذلك الحد، بل تجاوزه إلى الحقد على الدين والعمل على الطعن في أساسه الأكبر ومصدره الأعظم وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن المستشرقين الذين أفسدت نزعة التعصب لدى كثير منهم الروح العلمية النزيهة، مع ما يخالط كثيراً من أعمالهم من غايات استعمارية أو تبشيرية تحملهم على طمس معالم الحقيقة أو تشويهها. ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) ابن الجزري: «غاية النهاية» (١/٣٥٤).